

المرأة الجزائرية اللاجئة خلال الثورة التحريرية (1954-1962) من خلال كتابات

الصحفية الألمانية إيفه بريستير

La femme algérienne réfugiée pendant la guerre de révolution

nationale (1954-1962), à travers les écrits de la journaliste

allemande Eva Brewster.

أ. محمد بن ساعو / جامعة سطيف 2.

الملخص باللغة العربية:

رغم الأدوار البارزة التي قامت بها المرأة الجزائرية اللاجئة في الثورة التحريرية "1954-1962"، إلا أن الأبحاث حولها تبقى نادرة، وتأتي هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على بعض جوانب الموضوع، حيث تستهدف دراسة أوضاع المرأة الجزائرية اللاجئة في تونس من خلال مصدر مهم، وهو كتاب "في الجزائر يتكلم السلاح - نضال شعب من أجل الحرية" للكاتبة الصحفية الألمانية "إيفه بريستير"، التي نقلت من خلاله معاناة اللاجئين في المخيمات الحدودية بتونس، وتتطرق هذه الدراسة إلى جملة من القضايا حيث تتبّع ظاهرة اللجوء كرد فعل على السياسة الاستعمارية وكتحدي إيجابي لخدمة القضية الوطنية، وتستقصي حقيقة أوضاع اللاجئين الجزائريين بتونس في ظل نقص التموين بالاحتياجات الضرورية وانتشار مظاهر البؤس والمرض، وتبيّن أيضا الجهود المبذولة للتكفل بهم، سواء من طرف السلطات التونسية أو جبهة التحرير الوطني والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والهلل الأحمر الجزائري والدول العربية والإسلامية والجمهوريات الاشتراكية، والمنظمات الإنسانية الدولية كالهلال والصليب الأحمرين، وإضافة إلى ذلك نبرز الأدوار التي قامت بها المرأة اللاجئة في الثورة التحريرية في مختلف الميادين بطرق مباشرة أو غير مباشرة، خاصة وأنها كانت تؤطر الكثير من هياكل الجبهة بتونس والتي اعتبرت إحدى القواعد الخلفية للثورة.

Résumé :

Malgré les rôles importants joués par les femmes réfugiées algériennes dans la guerre de libération nationale

"1954-1962", les recherches la concernant restent rares. Cette présente recherche vient mettre la lumière sur certains aspects de la question, en ciblant l'étude de la situation des femmes algériennes réfugiées en Tunisie à travers une source importante qui est le livre "en Algérie parlent les armes - lutte d'un peuple pour la liberté" de l'écrivaine et journaliste allemande "Eva Brewster", qui retranscrit la souffrance des femmes réfugiées dans les camps aux frontières Algéro-tunisiennes.

Cette étude touche un certain nombre de questions relatives au phénomène de l'exile comme réaction à la politique coloniale et comme défi positif au service de la cause nationale. Aussi, elle explore la réalité de la situation des réfugiées algérienne en Tunisie à l'ombre du manque de ravitaillement et des besoins essentiels, en plus de la propagation des maladies et de la misère. Elle démontre aussi les efforts fournis pour les prendre en charge, que ce soit par les autorités tunisiennes, le FLN, le gouvernement provisoire de la République algérienne, du Croissant-Rouge algérien, les pays arabes et islamiques et républiques le socialisme, ou

même les organisations humanitaires internationales (croissant / croix rouge).

Nous tenons à ce mettre en évidence les rôles joués par les femmes réfugiées dans la révolution algérienne dans divers domaines, directement ou indirectement, d'autant qu'elle a encadré de nombreuses structures en Tunisie, qui a été considéré comme l'une des bases arrière de la révolution.

مقدمة:

كثيرا ما يتناول الباحثون بالدراسة والتحليل أوضاع المرأة الجزائرية وأدوارها خلال الثورة التحريرية، لكن الدراسات المتعلقة بالمرأة اللاجئة خلال نفس الفترة تبدو نادرة، لذلك كان من الضرورة البحث في وضعية هذه الشريحة الاجتماعية الهامة والتي قررت اللجوء إلى دول الجوار كالمغرب وتونس، مضطرة تحت طائل التعسف الاستعماري.

لقد كان للمرأة الجزائرية دورا بالغ الأهمية في الثورة التحريرية سواء في الجزائر، أو تلك التي لجئت إلى دول الجوار، وقد أكد مؤتمر الصومام ذلك حيث جاء في ميثاقه: "إننا نحیی بتأثیر وإعجاب الشجاعة الثورية المتحمسة التي عبّرت عنها الفتيات والنساء والزوجات والأمهات وجميع أخواتنا المجاهدات اللاتي تشاركن فعليا وبالسلاح أحيانا في النضال المقدس لتحرير الوطن"¹.

قد يعتبر البعض أن مغادرة العائلات الجزائرية لأرضها في ظل الحرب التحريرية اختيارا براغماتيا للنجاة وتحصيل ظروف حياتية أفضل، والحقيقة أن اللاجئین كانوا مجبرین ومضطربین لمغادرة قراهم بعد حرقها لثبوت وقوف سكانها إلى جانب جيش التحرير الوطني، لكن هل اللجوء أوقف معاناة الجزائريين اللاجئین عموما والمرأة بصفة خاصة وقطعها عن وطنها الأم وعن جهود تحريره؟، صحيح أنهم ابتعدوا ولو بمئات الأمتار عن مظاهر التقتيل والتنكيل، لكن ظروفهم

في المخيمات التي استقبلتهم كانت في أغلب الأحيان قاسية، ومع ذلك عاشوا على أمل العودة.

شكّلت النساء نسبة هامة من اللاجئين الجزائريين بتونس خلال الثورة التحريرية، وأمام الأوضاع المزرية التي كانوا يعيشونها، برزت جهود كبيرة لتجاوز هذه المعاناة من المحال الأحمر الجزائري، وزارة الشؤون الاجتماعية، هيئة الأركان للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، اتحاد العمال الجزائريين، اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، والتضامن الدولي، فكل هذه الأطراف كانت تسعى لتحسين ظروفهم.

سنتناول في هذه الورقة البحثية عرضا لواقع المرأة الجزائرية اللاجئة في تونس من مختلف الجوانب، من خلال ما أوردته الصحيفة الألمانية إفه بريستير -مراسلة إذاعة ألمانيا الشرقية- في كتابها: "في الجزائر يتكلم السلاح -نضال شعب من أجل التحرير-"، والكتاب وليد ملاحظات ومشاهدات الصحيفة الشيوعية التي زارت مخيمات اللاجئين على الحدود التونسية الجزائرية ونقلت عبر كتابها حقيقة الظروف التي كان يعيشها اللاجئون.

وتأتي أهمية هذا الكتاب الذي نحن بصدد الكتابة من خلاله، في أن مؤلفته عاشت فترة بين اللاجئين في تونس واحتكت بالنساء هناك، وبذلك فالكتاب أقرب للمذكرات التاريخية، إضافة إلى المحطات البارزة التي تناولها ودرسها بطريقة موضوعية كأسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر، والظاهرة الاستيطانية، وأحداث 08 ماي 1945، إضافة إلى التيارات المشكّلة للحركة الوطنية، ومسيرة الثورة التحريرية إلى غاية مارس 1959 تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب، الذي جاء من أجل التعريف بالقضية الجزائرية في الأوساط الأوروبية، فضلا عن الأخبار التي كانت تنشرها الصحافة الألمانية بناءً على ما تقدمه المؤلفة من أخبار تستقيها من مواقع الحرب.

وبذلك فقد طاف الكتاب بين أحداث تاريخية هامة، حاولت من خلالها الكاتبة أن تفك رموز القضية الجزائرية التي كانت بعيدة عن إدراك الكثير من الأوروبيين، وجاء تناولها للموضوع بمنهج تاريخي تحليلي نقدي، وهو بذلك أقرب

للمناهج التاريخية الحديثة من الكتابة الصحفية، رغم أن صاحبة التأليف هي صحفية بالأساس.

والأكيد أن القارئ للكتاب يلاحظ أنه بدأ بقضية اللاجئين وانتهى بها، لكن أغلب فصول الكتاب تناولت كما ذكرنا أحداث تاريخية فارقة في مسيرة الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، ورغم الصفحات القليلة التي خصصت لأوضاع اللاجئين إلا أننا أردنا أن نربط دراستنا المتعلقة بالمرأة اللاجئة بهذا الكتاب، للأسباب الآتية:

1- أهمية الكتاب كمصدر من مصادر تاريخ الجزائر خلال الثورة التحريرية، ونحن بذلك نحاول لفت أنظار الباحثين إلى هذا النوع من المصادر القيمة، والتي أوردت كما هائلا من المعطيات التاريخية التي يمكن توظيفها في الكتابة التاريخية، خاصة وأنها مصادر غير جزائرية وغير فرنسية، فارتباط دراستنا بهذا الكتاب هي محاولة لتنبيه الأكاديميين لهذه التأليف من جهة، والناشرين أيضا لإعادة طبعها وتقديمها في صور تليق بقيمتها، وحتى الفنانين من مسرحيين وروائيين بإمكانهم النهم منها.

2- التوجه الشيوعي لمؤلفة الكتاب، والذي يعبر عن تلك الموجة التضامنية تجاه الثورة التحريرية من طرف الدول والشعوب الاشتراكية، حيث تبني الكثير من أنصار هذا التيار القضية الجزائرية وراحوا يدافعون عن حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ويجمعون المساعدات، خاصة وأن الكثير مما كان يصل اللاجئين مصدره الدول الاشتراكية إضافة إلى الدول العربية والإسلامية.

3- المؤلفة هي امرأة قبل أي شيء، لذلك حاولت أن ترسم لنا وضعية المرأة بنظرتها الأنثوية، معاناتها، آلامها وآمالها.

وبذلك فإن هذه الورقة البحثية تهدف إلى الإجابة على الإشكالية الرئيسية للموضوع، والتي تلخصها التساؤلات الآتية:

ما هو واقع المرأة الجزائرية اللاجئة خلال الثورة التحريرية؟، كيف صارت المرأة الظروف المثبطة التي كانت تعيشها من أجل إثبات أنها ليست مهجرة بدون إرادة وبدون أمل؟، كيف أكملت مسيرتها في بناء جيل يؤمن بالحرية ويناضل

لأجلها؟، كيف حوّلت نساء اللجوء تواجدهم خارج وطنهم الأم إلى نوع من النضال والتحدي الإيجابي خدمةً للقضية الجزائرية والثورة التحريرية؟، وما هي أشكال الدعم الذي قدمته اللاحقة للثورة؟، ثم ما هي القيم والحقائق التاريخية التي حملها كتاب "في الجزائر يتكلم السلاح - نضال شعب من أجل التحرير-" للمناضلة الألمانية إيفه بريستير؟.

1- حول الكاتبة والكتاب:

أ- الكاتبة "إيفه بريستير" "Eva Brewster":

إيفه بريستير مراسلة إذاعة ألمانيا الشرقية، قدمت إلى تونس في مهمة صحفية تضامنية مع الثورة التحريرية الجزائرية، لتغطية أحداثها للجهات الإعلامية التي تعمل في إطارها، وكان استقرارها على الحدود الجزائرية التونسية حتى تكون أقرب لنقل الصورة الحقيقية لما يقع في الجزائر الثائرة، في ظل محاولة الإعلام الغربي المساند لفرنسا تقديم صورة تخدع الجانب الاستعماري.

ب- الكتاب:

الكتاب الرئيس المعتمد في الدراسة بعنوان: "في الجزائر يتكلم السلاح - نضال شعب من أجل التحرير-"، للصحفية إيفه بريستير، ترجمة: عبد الله كحيل، والطبعة المستغلة هي التي أشرفت عليها المؤسسة الجزائرية للطباعة، ونشرت سنة 1989، بالجزائر، وعدد صفحاته 351 صفحة، توزعت فيها مواضيع الكتاب المتنوعة التي تناولت قضايا تاريخية ترتبط بالاحتلال الفرنسي للجزائر والسياسة الاستعمارية ومسيرة التحرر، وفرغت الكاتبة من تأليف الكتاب في مارس سنة 1959.

وأسلوب الكتاب أقرب إلى المذكرات التاريخية ذات الطابع الأدبي والصحفي في جزئها المرتبط بأوضاع اللاجئين، بينما تميزت بصبغة تاريخية عند مناقشة وعرض الأحداث التاريخية، لذلك فالكتاب يقدم حقائق تاريخية هامة حول الحياة في مخيمات اللاجئين بتونس...، ومن هنا تتأتى أهميته وقيّمته.

2- اللجوء إلى تونس:

أ- مفهوم اللاجئ:

جاء في معاهدة اللاجئين للأمم المتحدة لعام 1951: "اللاجئ هو الشخص الذي بسبب مخاوف حقيقية من اضطهاد بسبب العرق، الدين، الجنسية، انتمائه إلى طائفة اجتماعية معينة أو ذات رأي سياسي، تواجد خارج البلد الذي يحمل جنسيته، وغير قادر بسبب هذه المخاوف الاعتماد على حماية دولته أو العودة لبلده بسبب المخاوف من الاضطهاد"، لكن هذا التعريف يبقى غير واضح ولا يستخدم بطريقة ثابتة.

والتعريف الأكثر دقة هو ما ورد في دائرة المعارف البريطانية، حيث جاء فيها: "إن اللاجئين هم الأشخاص الذين يجبرون على ترك بيوتهم خوفا من الاضطهاد سواء بشكل فردي، أو جماعي لأسباب سياسية، أو دينية، أو عسكرية، أو لمشاكل أخرى"².

ب- دوافع الهجرة واللجوء إلى تونس:

بدأت موجة الهجرة إلى تونس منذ 1830، عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبعد اندلاع الثورة التحريرية وسياسة التضييق التي مارسها الاستعمار الفرنسي لمحاصرة الثورة، والوضع الاقتصادي الصعب الذي مر به الجزائريون، اضطر على إثر ذلك عدد هام منهم إلى الالتحاق بتونس، خاصة بعد استصدار قانون الطوارئ في أبريل 1955، وشن عمليات عسكرية على المناطق الحدودية الشرقية وإنشاء مناطق محرمة على طولها، تمهيدا لإقامة الأسلاك الشائكة "خط موريس"، ثم جاءت أحداث ساقية سيدي يوسف في 08 فيفري 1958 لتكتب صفحة دموية في تاريخ الشعبين³، وراح ضحية هذه الأحداث عدد كبير من التونسيين واللاجئين الجزائريين.

وبالتالي فإن اللجوء إلى تونس لم يكن رغبة في الحياة الهادئة بعيدا عن أجواء الحرب، بل أجبرتهم الظروف القصرية على مغادرة أراضيهم، فأغلب اللاجئين جاؤوا من قرى دمرها الجيش الفرنسي، حيث تذكر إحدى نساء المخيمات أن القرية التي

كانت تقطنها تعرضت للقصف الجوي وبعدها أحرقت وتعرضت بعض فتياتها للاغتصاب، ثم طُلب من ساكنتها إخلاء المكان على الفور⁴.

وكان سبب إقدام الفرنسيين على حرق وإخلاء هذه القرى هو الدعم الذي كان يقدمه سكانها لجيش التحرير الوطني، ورغم ما سببه لهم ذلك إلا أنهم بقوا مصممين حتى وهم في مخيمات اللجوء على تقديم المساعدة لجيش التحرير، وعبروا عن عدم ندمهم على ما قاموا به من أجل الجزائر، حتى وإن كلفهم ذلك الطرد من منازلهم وموطنهم⁵.

اجتاز مئات الأطفال والنساء والشيوخ الحدود بمفردهم، واضطروا لبناء أكواخ للإقامة فيها مؤقتا، لكنهم عانوا من نقص الغذاء والأمراض (السل، الزحار، الرمد الحبيبي، الكساح، الكزاز...)، ونتيجة الصدمات النفسية برزت مشكلة فقدان العقل عند الكثير من اللاجئين، لكن رغم كل هذه الظروف كان العلم الوطني يفرق فوق الأكواخ البالية، فألبستهم رثة والعلم نظيف⁶، وهي رسالة قوية أن هذا الشعب متمسك بوطنه وبحريته ووجوده.

وقد وجد اللاجئون الجزائريون كل الترحيب من الأشقاء التونسيين، فاستقر أغلبهم بالمدن الحدودية بينما وصل البعض رحلته واستقر بالمدن الداخلية⁷.

لقد كان لجوء الكثير من العائلات الجزائرية إلى تونس بمثابة النضال المشترك ووحدة الهدف بين الشعبين الجزائري والتونسي، فمفهوم الوحدة والنضال من أجل القضاء على الاستعمار، وتحقيق الوحدة بين أقطار المغرب العربي، حاضر في أدبيات وتصورات أقطاب التحرر في بلدان المغرب خاصة تونس والجزائر، حيث عملت التنظيمات والأحزاب السياسية بالتنسيق مع بعضها لتأكيد التضامن وهو ما يفسر التحاق عدد من الثوريين الجزائريين بالثورة التونسية بين 1953 و1954، ومن العوامل التي شجعت على ذلك الروابط الاجتماعية العميقة بين سكان المناطق الحدودية خاصة، والاحتكاك من خلال العمل والتعليم⁸.

وأكدت جبهة التحرير الوطني في بيان أول نوفمبر 1954 ارتباط الثورة التحريرية بالمغرب الكبير ووحدة الشمال الإفريقي، حيث جاء فيه: "والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي تهدف إلى الاستقلال في إطار الشمال

الإفريقي"، وأكد البيان على تأثير المقاومتين التونسية والمغربية على الجزائريين: "أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال إفريقيا".

وقد خلّفت الهجرة الجزائرية إلى تونس خلال الثورة التحريرية جملة من النتائج على مختلف الأصعدة، حيث استفاد اللاجئون من مستوى تعليمي يتركز على مبادئ الهوية الإسلامية، وتحقق مبدأ التضامن والتكافل بين الشعبين الشقيقين.

ج- تطور حركة اللجوء نحو تونس:

لاقت السلطات الفرنسية ممثلة في سفارتها بتونس صعوبات في تحديد عدد اللاجئين الذين تطلق عليهم "الفرنسيين المسلمين للجزائر المقيمين بتونس" "Les français Musulman d'Algérie"، حيث قدّمت رقمين متضاربين شككت في صحتهما، الرقم الأول هو: 66845 لاجئ، والرقم الثاني الذي أكّدت بأنه مبالغ فيه، هو: 120.000 لاجئ جزائري في تونس، وفي الأخير قدّرت عددهم بين 75.000 و 80.000 لاجئ، فيما قللت السكرتارية العامة الفرنسية عددهم إلى 25000 لاجئ فقط.

أما إحصائيات جبهة التحرير الوطني فإنها تشير إلى أن عددهم وصل في جوان 1958 إلى 130.000 لاجئ، 55% منهم أطفال، و20% نساء، وتمركزوا في عدة مناطق حدودية كما يأتي⁹:

11682	مدينة تونس وما جاورها
1682	مدن وسط الشمال
50616	الكاف
32860	سوق لربعاء
2895	باجة
23885	الجنوب
123620	المجموع

وبغض النظر عن اختلاف الأرقام المقدمة، فإن عدد اللاجئين الجزائريين قد شهد تصاعدا كبيرا خاصة في ظل اشتداد السياسة الاستعمارية قوة وحدة بهدف القضاء على الثورة التحريرية.

ونظرا لارتباط الجزائريين بأرضهم فقد كانوا يفضلون البقاء على مقربة من الحدود¹⁰.

3- طبيعة الحياة في المخيمات:

انتشرت أغلب مخيمات اللاجئين الجزائريين في تونس على الحدود الجزائرية التونسية، وقد يصل عدد أفراد المخيم أو يتجاوز (1700) نسمة، كما هو الحال في مخيم البرك الحدودي جنوبا، حيث 80% منهم نساء وأطفال، والبقية شبوخ، بينهم عدد من المصابين بالأمراض العقلية¹¹، نتيجة الصدمات النفسية التي يتعرضون لها.

وتصف إيفه حال مطبخ أحد اللاجئين في المخيمات الواقعة على الحدود، حيث يتكون من موقد بجواره كومة من الحطب، ووعاء قديم للمحفوظات، وصفيحة من البنزين أصبحت تستعمل كوعاء لمياه الشرب، وما تملكه هذه العائلة تحسد عليه من طرف بقية اللاجئين، لأن علب المحفوظات القديمة الفارغة هي من أثمن ما يوجد بالمخيمات.

وتتميز الأكواخ المشكلة للمخيمات بشدة ضيقها، خاصة وأن عدد الأفراد يتعدى في أحيان كثيرة الثمانية أفراد، وأغلب الأكواخ تفتقر للأغطية والأفرشة، لذلك يضطرون للاصطفاف والنوم لتوفير أكبر نسبة من الحرارة¹²، وقد كانت النسوة تتذكرن الأغطية التي بقيت في المنازل بقراهم الأصلية أو أحرقها ونهبها الفرنسيون، حيث تقول إحدى النساء مخاطبة المؤلفة: "... أنا أيضا كان لدي غطاء حكته بنفسي، متعدد الألوان، هو أجمل ما في القرية، وعندما جاء الفرنسيون للنهب مرة ثانية، أخذه جندي،... ألا يملك الفرنسيون أغطية حتى يسرقوا ما لدينا؟"¹³.

وكان يراعى في تشكيل هذه الأكواخ والمخيمات القرابة العائلية والقروية، حيث يعيش أبناء القرية أو ما تبقى منهم في أكواخ متقاربة، وهو ما يقلل من وطأة الغربة في نفسيتهم.

ومن مظاهر التضامن المنتشرة في المخيمات رغم قلة الامكانيات أن العائلات التي تمتلك الأغذية على قلتها تقوم بإعارتها للمرضى والمسنين¹⁴.

وتزداد قساوة العيش خلال فصل الشتاء حيث تتساقط الثلوج، وتنهار في بعض الأحيان تلك الأكواخ المهترئة بفعل ثقل كميات الثلوج المتراكمة عليها، فينتقل قاطنوها إلى أكواخ جيرانهم¹⁵، وفي ظل هذه الظروف كانت النساء اللاجئات تعانين من الأمراض التي يتعرض لها الأبناء، كالروماتيزم الذي يؤدي إلى الشلل في بعض الحالات وهنا تتضاعف المعاناة¹⁶.

وكان اللاجئون المستقرون في المخيمات يحضرون كميات معتبرة من الأخشاب، ليس لاستعمالها في التدفئة شتاءً، إنما لمساعدة اللاجئين الذين يدخلون الحدود في بناء أكواخ جديدة¹⁷، كما كانت النساء بألبستهم البالية تقطع مسافة كيلومترين للوصول إلى البئر لجلب المياه الصالحة للشرب¹⁸.

وللتخفيف من مظاهر العوز والفاقة كانت النساء تبعن حليهن الفضية لتغطية بعض النفقات الضرورية، في ظل النقص الكبير في التموين بالمواد الغذائية.

وبذلك فإن اللاجئين في المخيمات كانوا يعيشون ظروفًا صعبة لأنها تضم مختلف الفئات (أطفال، نساء، شيوخ...)، وينتشر فيها الجوع والأمراض والأوساخ¹⁹، وفضلا على ذلك تعرضوا للقصف الفرنسي بحجة مطاردة عناصر جيش التحرير الوطني، فكان الكثير من النساء والشيوخ والأطفال يسقطون ضحايا لهذا العدوان²⁰، كما حدث في ساقية سيدي يوسف، التي عرف العالم بها من خلال أعضاء الصليب الأحمر الدولي الذين كانوا متواجدين هناك، لكن الأكيد أن ما حدث دون أن يُعطى إعلاميا أكبر مما حدث في ساقية سيدي يوسف.

ورغم ظروف الحرب والتقتيل التي كانت تعيشها بلادهم، إلا أن الحنين إلى الجزائر ظل يسيطر على نفسية اللاجئين، حيث كانوا يقارنون نخط معيشتهم في تونس بما كانوا عليه في قراهم ومداهرهم، أين توفرت لهم ظروف اقتصادية أفضل مما

كانوا عليه في المخيمات، لأنهم امتلكوا في الجزائر بعض الحيوانات التي يقتاتون منها كالأبقار والماعز والأغنام والدجاج والنحل²¹.

لقد كانت الحياة في المخيمات صعبة، نتيجة الظروف القاسية على الحدود الجزائرية التونسية، فبالإضافة إلى النقص الشديد في التموين بالمواد الغذائية والأغطية والأدوية، وضعف التغطية الطبية، كانت أصوات القنابل والقصف لا تغادر أسماع اللاجئين، بل طالتهم في أحيان كثيرة آثار العدوان الفرنسي بحجة ملاحقة جنود جيش التحرير الوطني.

4- جهود التكفل باللاجئين:

أ- جهود الحكومة والشعب التونسيين:

قدّمت السلطات التونسية تسهيلات كبيرة للاجئين الجزائريين، حيث وظّفت بعضهم في إدارتها، وأمنت لهم جملة من التسهيلات، وربطت الاتصالات الدولية بالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني، من أجل طرح قضية اللاجئين على هيئة الأمم المتحدة والمندوبية السامية للاجئين، وقد تفاعل الصليب والهلال الأحمرين مع دعوات الإغاثة، حيث جاء في أعقاب الندوة الدولية العالمية التي نظمت من طرف الهيئتين بنيودلهي بين 24 أكتوبر إلى 07 نوفمبر 1957: "بما أن عددا كبيرا من الجزائريين، معظمهم من النساء والأطفال، اضطرتهم حوادث الجزائر إلى الهجرة فاجئوا إلى تونس والمغرب، وبما أن أغلبية هؤلاء اللاجئين المتزايد عددهم كل يوم يوجدون في حالة احتياج تام، ... وبما أن الإعانات التي قدمتها الحكومتين التونسية والمغربية، واللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية الهلال الأحمر التونسي وجمعيات أخرى متمسكة بمبادئ الهلال الأحمر، لم تكف لدفع الخطر الكبير الذي يهدد حياة هؤلاء الضحايا البريئة".

وإثر هذا النداء تضاعفت المساعدات الموجهة للاجئين الجزائريين بتونس، حيث استقبلت الحكومة التونسية ما قيمته 22 مليون دولار أمريكي بين 1959 و1962، لكن حدث خلاف حول الطريقة المثلى لتوزيعها على اللاجئين بين

الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة التونسية، ولم يتم تجاوزه إلا في سنة 1960²².

وجدت الحكومة التونسية صعوبات كبيرة في توزيع المساعدات على اللاجئين الجزائريين بسبب تنقلهم المستمر على الأراضي التونسية، وعدم التزامهم بمكان معين، مما صعب في وضع إحصاء دقيق لأعدادهم الكثيرة.

ولم يقتصر دور السلطات التونسية على استقبال اللاجئين واسعافهم وتوزيع المساعدات الإنسانية، بل تعداه إلى العمل على تحسين ظروفهم وإقامة مختلف النشاطات والاتصالات، كما أن المدارس والمؤسسات الاستشفائية التونسية كانت مفتوحة أمام الجزائريين.

لقد سهرت السلطات التونسية على رعاية شؤون اللاجئين والتخفيف من مأساتهم، ودافعت عن قضيتهم في المنابر الدولية، واستجذبت بهيئات الإغاثة العالمية، ورغم هذا الدعم الشعبي والرسمي العام فإن الوصاية على قضية اللاجئين والتمثيل الاجتماعي للجزائريين وطريقة توزيع المساعدات خلق كثيرا من الخلافات بين الحكومات التونسية وجبهة التحرير الوطني²³.

هذا على المستوى الحكومي، أما على المستوى الشعبي فقد كان الأشقاء التونسيون يدعمون اللاجئين ويقفون إلى جانبهم رغم حالتهم الصعبة أيضا. وإلى جانب الدعم الشعبي قدّمت المنظمات والهيئات العمالية والنسوية والطلابية دعمها للاجئين، كما كانت تعمل على حث المنظمات الإنسانية والخيرية الوطنية والدولية لتقدم المساعدات.

ب- جهود جبهة التحرير والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية:

اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية باللاجئين الجزائريين، خاصة بعد انتقال الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى تونس، حيث نظمت الملاجئ وأنشأت المستشفيات والمراكز الصحية، وبذلك دعمت نشاط الهلال الأحمر الجزائري الذي تأسس في 1957/01/18، كما عينت المرشدين الاجتماعيين والسياسيين وجندتهم لإلقاء الدروس والخطب.

وقد سعت الجزائر إلى إيصال صوت معاناة لاجئها إلى مختلف المنابر الدولية، ومن ذلك المؤتمر الرابع للاتحاد النسائي الديمقراطي المنعقد في فيينا بين 01 و05 جوان 1958، حيث طرحت فيه قضية اللاجئين الجزائريين، فجاء على لسان ممثلة الجزائر: "... وأناشدهم بصوت متألم لفائدة مئات الآلاف من اللاجئين من النسوة والأطفال والشيوخ الفارين من هول الحرب"، ومما خرج به المؤتمر التضامن العملي مع المرأة الجزائرية والوعد بزيادة الإعانات المادية للاجئين الجزائريين خاصة الأطفال.²⁴

د- جهود المجتمع الدولي والمنظمات الإنسانية:

قام المجتمع الدولي بجهود هامة في دعم اللاجئين، وتموينهم بالمواد الغذائية والأدوية والألبسة والخيام، وكانت أغلب المساعدات الدولية تصل من الدول العربية والإسلامية والدول الاشتراكية، كجمهوريات الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، إضافة إلى المنظمات والهيئات الإنسانية.

وقد كانت مخيمات اللاجئين الجزائريين في الحدود التونسية الجزائرية محل زيارات لوفود غربية من أجل الاطلاع على أوضاع اللاجئين وتقديم المساعدات، ومن ذلك الزيارة التي قام بها "هاين فان ويجك" "Hein van Wijk"، رئيس حركة السلام الهولندي إلى مخيمات اللاجئين بساقية سيدي يوسف، حيث صُدم من الوضعية التي يعيشها اللاجئين في ظل غياب أدنى شروط ومتطلبات الحياة، وقد ساهمت مثل هذه الزيارات في زيادة الدعم الموجه للمخيمات ابتداءً من ربيع 1958، حيث وصلت شحنة وزنها 8000 كلف من الألبسة، فضلاً عن مبلغ 9000 فلورنس²⁵ وصلت من هولندا إلى تونس، وتم تخصيصها للاجئين الجزائريين²⁶، كما عملت الجمعية البروتستانتية "V.P.R.O" على تحصيل التبرعات لصالح اللاجئين الجزائريين خلال السنة العالمية للاجئين "من جوان 1959 إلى غاية جوان 1960"²⁷.

علما أن فرنسا أعلنت لحلفائها في الناتو أن تقدم أي مساعدات للاجئين الجزائريين من مواد غذائية وأغطية هو عمل عدائي ضد الدولة الفرنسية.²⁸

5- مهام المرأة اللاجئة وأدوارها في الثورة التحريرية:

شكلت المرأة في المخيمات عنصرا أساسيا، لذلك تعددت مهامها، فكانت تهتم بشؤون الأسرة، وتقوم برعاية الأطفال بمخيمات اللاجئين وتقدم لهم العلاج، وقد أشار الأستاذ عبد الرحمان ناصر إلى وجود ممرضات جزائريات كن في الجبل ضمن جيش التحرير الوطني، ثم التحقن بمراكز الطفولة بتونس، منهن زهرة وسعيدة ومليكة وحسية²⁹، حيث يزودن المركز بمختلف أنواع الأدوية ويعالجن الأطفال، ويرافقنهم إلى المستشفى، كما كانت الدكتورة جانين بلخوجة دائمة التردد على مراكز الأطفال اللاجئين للوقوف على صحة الأطفال، خاصة وأنها مختصة في الصحة المدرسية، وتمكنت من القضاء على العديد من الأمراض التي انتشرت في هذه المراكز كالرمد الحبيبي، الجرب، والقرع³⁰.

وكان نقل الجنود الجرحى إلى تونس فرصة لتعرف النساء اللاجئات أخبار الزوج والعائلة، عن طريق أصدقائهم المصابين الذين تضطروهم ظروفهم إلى الدخول لتونس لتلقي العلاج³¹.

وفي الجانب اللوجستي قامت بعض الفتيات بمهمة صناعة المتفجرات والألغام وحفظ الأسلحة، بينما كلفت المتعلقات بكتابة المناشير على الآلات الرقنة وتكوين الممرضات³²، كما ساهمت المرأة الجزائرية في النضال السياسي بتونس، من خلال تأسيس "منظمة اتحاد النساء الجزائريات"، سنة 1958، حيث قامت هذه المنظمة بجملته من النشاطات، أبرزها:

- جمع التبرعات وربط الاتصالات وتنسيق العمل مع المنظمات النسوية المغاربية والعالمية.

- إرسال الوفود لمختلف الدول تعريفها بالقضية الجزائرية.

- الاهتمام بقضايا المرأة وأوضاع اللاجئين ودعمهم اجتماعيا.

- المشاركة في المؤتمرات الدولية³³.

ومن أهم المؤتمرات الدولية التي شاركت فيها المرأة الجزائرية المؤتمر الرابع للاتحاد النسائي الديمقراطي المنعقد في فيينا بين 01 و 05 جوان 1958، الذي أشرنا إليه سالفا³⁴.

وبذلك حاولت المرأة الجزائرية التعريف بالقضية الجزائرية في المحافل الدولية، من خلال حضورها في المؤتمرات الدولية وطرح انشغالاتها وتطلعاتها، والتنسيق مع المنظمات النسوية العالمية، وجمع التبرعات، وطرح قضية اللاجئين.

وفتحت تونس أبوابها للفنانات الجزائريات اللائي انخرطن في الفرقة الفنية لجبهة التحرير الوطني، حيث منحت السلطات التونسية جواز سفر تونسي للفنانة الحاجة "بلاحة الوافية" لتتمكن من المشاركة في مختلف المحطات الفنية الدولية باعتبارها ممثلة ومطربة، والأمر نفسه بالنسبة للفنانة "مليكة ابراهيمي"³⁵.

لقد كانت القضية الوطنية حاضرة بقوة في مخيمات اللاجئين، حيث كان اللاجئين متشبعون بالأفكار الثورية التحررية، وكانوا يتجاوبون مع مختلف القضايا الوطنية، فرغم أوضاعهم الصعبة إلا أنهم يقومون بجمع وتخصيص جزء من المساعدات التي تصلهم لتقديمها للمجاهدين في الداخل، إيماناً منهم بضرورة العمل من أجل تحرير الجزائر، حيث ساهموا بالألبسة والمواد الغذائية والأسلحة.

كما أن المساعدات التي كانت جبهة التحرير الوطني تتلقاها باسم اللاجئين، ووجه جزء هام منها لجيش التحرير الوطني، وبذلك اتبعت الجبهة سياسة التمويه للحصول على أكبر قدر من المساعدات الدولية، وبهذا شارك اللاجئون في دعم الثورة التحريرية وإن بطريقة غير مباشرة في هذا الجانب.

وبذلك فإن مساهمة اللاجئين نساءً ورجالاً ... في الثورة التحريرية كان بطرق متعددة منها ما هو مباشر من خلال التحاقهم بالثورة وبجيش التحرير، ومنها ما هو بطرق غير مباشرة مثل حصول جيش التحرير الوطني على التموين بالأغذية والألبسة التي تصل على شكل مساعدات إنسانية للاجئين.

أما بخصوص الخدمات الطبية التي قدّمتها النساء الجزائريات اللاجئات في تونس للجنود المصابين الذين يدخلون عبر الحدود فقد حققت على المستشفيات السرية الموجودة بالداخل والتي كانت تعاني من الاكتظاظ وضعف الإمكانيات، خاصة بعد أن تمكنت القوات الفرنسية من فك الكثير من الشبكات الطبية التي تمول جيش التحرير والمكونة أساساً من أطباء وممرضين فرنسيين تعاطفوا مع القضية الجزائرية وتبنوها.

وشكلت تونس إضافة إلى ذلك قاعدة خلفية لدعم الثورة بالأموال والأسلحة، وانخرطت المرأة اللاجئة في هذه العملية، خاصة في صناعة بعض أنواع المتفجرات التي توجه لساحات القتال في الجزائر.

لقد تعددت مهام المرأة الجزائرية اللاجئة في تونس، بين الاهتمام بالأبناء وإعدادهم لمسيرة النضال وغرس الروح الوطنية التحريرية فيهم، ومهام طبية وأخرى فنية، لكنها في الأخير تصب جميعها في خدمة القضية الوطنية.

وبذلك فإن أدوار المرأة الجزائرية اللاجئة في الثورة التحريرية لا تقل عما قامت به نساء الداخل، حيث حملت نساء الجزائر هماً واحداً، ناضلوا من أجل هدف واحد، ضحوا بأزواجهم وأولادهم من أجل حرية الجزائر، صحيح أن طريقة النضال تختلف، لكن الهدف مشترك.

وبعد وقف إطلاق النار بدأ الاستعداد للعودة إلى أرض الوطن، وكان الشوق كبيراً لرؤية الجزائر متحررة، ففي أواخر جوان 1962 بدأت الاستعدادات للعودة، وأعدت جبهة التحرير الوطني مئات الخيام التي نصبته على طول الحدود الجزائرية التونسية، وجعلتها نقاط استقبال للاجئين، وزودت هذه المراكز بلجان لمراقبة الحالة المدنية لكل لاجئ، وبأطباء وممرضين لإسعاف المرضى، كما وزعت مواد تموينية متنوعة، وسخرت وسائل النقل لإعادة اللاجئين لمناطقهم الأصلية³⁶.

خاتمة:

من خلال بحثنا في الموضوع انطلقاً من كتاب "في الجزائر يتكلم السلاح"، وبالاستعانة بمصادر ومراجع أخرى، يمكن أن نسجل جملة من النتائج كالاتي:

- تعتبر الهجرة واللجوء خلال الثورة رد فعل إيجابي، وليست هروباً من الحرب بقدر ما كانت بحثاً عن فرص أخرى لتقديم الدعم للمسييرة التحريرية بالجزائر ورفض السياسة الاستعمارية، علماً أن قضية اللاجئين كانت تشكل عقبة كبيرة أمام فرنسا، ورغم أن اللاجئين الجزائريين كانوا خارج وطنهم، إلا أنهم لم يشعروا بأنهم غرباء في تونس، وكانوا يعيشون على أمل النصر والعودة إلى الوطن.

- الظروف التي عاشت فيها المرأة في مخيمات اللاجئين كانت صعبة، بسبب قلة التموين بالمواد الغذائية وانتشار الأمراض والأوساخ، وضعف التأطير المدرسي أو انعدامه في أحيان كثيرة، فالظروف المعيشية في المخيمات كانت متدهورة.

- كان اللاجئين خاصة النساء والأطفال محور عمل تضامني، انخرطت فيه الحكومة والشعب التونسي والمجتمع الدولي المتعاطف مع القضية الجزائرية، وتوجيه من جبهة التحرير والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والهلل الأحمر الجزائري، وقد كان الدعم المقدم من طرف السلطات التونسية للاجئين الجزائريين، يبين مدى وقوف الحكومة التونسية مع الثورة التحريرية ومناصرتها لأهداف جبهة التحرير الوطني، رغم حداثة استقلالها وضعف امكانياتها.

- يمكن إرجاع الخلاف الذي وقع بين الحكومة التونسية وجبهة التحرير حول مسؤولية توزيع المساعدات، إلى أن جبهة التحرير كانت تسعى لتخصيص جزء من هذه المساعدات لتمويل الثورة، بينما تقوم السلطات التونسية بتوزيعها على اللاجئين، واعتضت جبهة التحرير على ذلك بحجة أن عملية التوزيع لم تشمل كل اللاجئين.

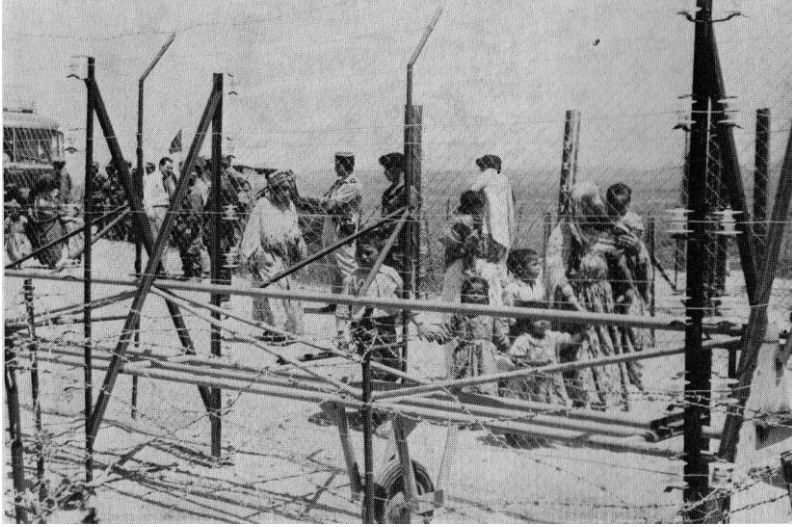
- كان لنساء اللجوء دور بارز وفعل في دعم الثورة التحريرية ماديا ومعنويا، بطرق مباشرة وغير مباشرة، ومن ذلك استغلال جبهة التحرير لقضيتهم في طلب المساعدات وتوجيه جزء منها إلى الداخل لتمويل الثورة، ليس هذا فحسب فحتى المساعدات الموجهة لهم كانوا يتنازلون عن جزء منها لصالح الثورة، لأنهم يحاولون المساهمة بقدر المستطاع في إنجاحها.

- قامت المرأة بأدوار فعالة في المسيرة التحريرية، حيث قدّمت خدماتها للثورة التحريرية، فكان من بين اللاجئين من تقدم الخدمات الطبية وتعالج الجنود المصابين الذين يدخلون الأراضي التونسية لتلقي العلاج، وتصنع المتفجرات، وتكتب المناشير، وتجمع التبرعات.

- وجود المرأة الجزائرية في تونس لم يقطعها عن قضية أمتها، بل كانت الثورة التحريرية هي محور أي عمل تقوم به.

- شكّلت فترة الثورة التحريرية أزهى الفترات في تاريخ المرأة الجزائرية، فرغم الظروف التي مرّت بها إلا أنّها أثبتت حضورها الفعّال وحجزت مكانتها في خضم الثورة النضالية التحريرية، والكثير من مكاسب المرأة في الثورة فقدتها في الجزائر المستقلة. والمفارقة التي نشير إليها أنه ورغم الأهمية والقيمة التاريخية للكتاب، إلا أن جل الباحثين الذين درسوا ظاهرة اللجوء واللاجئين الجزائريين خلال الثورة التحريرية، لم يعودوا إلى ما ورد فيه من مادة تاريخية تخدم الموضوع، خاصة وأن الكتاب يعد مصدرا مهما في هذا المجال، لذلك ننبه إلى ضرورة الالتفات إلى مثل هذه المصادر لبناء رؤية تاريخية تستند إلى الشهادات التاريخية واليوميات المدونة، مع ضرورة التعامل معها بموضوعية في إطار بعدها التاريخي والسياق الذي دوّنت فيه.

الملاحق:





اللاجئون الجزائريون داخل التراب الوطني - الخيام منصوبة على الحدود -
المصدر: عبد الرحمان ناصر: أطفال الحدود.



الهوامش:

- (1) مقتطف من ميثاق مؤتمر الصومام، نشره بسام العسلي: المجاهدة الجزائرية والإرهاب الاستعماري، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2010، ص221.
- (2) لمياء بوقريوة: اللاجئون الجزائريون في تونس إبان الثورة التحريرية الجزائرية (1954-1962) دراسة نقدية من خلال وثائق الأرشيف الفرنسي، دورية كان التاريخية، العدد: 16، جوان 2012، ص79-80.
- (3) لمياء بوقريوة: المرجع نفسه، ص81.
- (4) إيفه بريستير: في الجزائر يتكلم السلاح - نضال شعب من أجل التحرير-، ترجمة: عبد الله ف كحيل، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1989، ص22.
- (5) إيفه بريستير: المصدر نفسه، ص26.
- (6) عبد الرحمان ناصر: أطفال الحدود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص06-07.
- 7) BEN ATIA FAROUK: Les Action Humanitaires Pendant La Lutte, Liberation, Dahleb, Alger, 1999, P93.
- (8) لمياء بوقريوة: المرجع السابق، ص101.
- (9) لمياء بوقريوة: المرجع نفسه، ص83.
- (10) إيفه بريستير: المصدر السابق، ص13.
- (11) عبد الرحمان ناصر: المصدر السابق، ص171.
- (12) إيفه بريستير: المصدر السابق، ص18.
- (13) نفسه، ص20-21.
- (14) نفسه، ص19.
- (15) نفسه، ص20.
- (16) نفسه، ص29.
- (17) نفسه، ص24.

- 18) عبد الرحمان ناصر: المصدر السابق، ص171.
- 19) نفسه، ص171-172.
- 20) إيفه بريستير: المصدر السابق، ص11.
- 21) نفسه، ص21.
- 22) لمياء بوقريوة: المرجع السابق، ص84.
- 23) مقلاتي عبد الله: النشاط الإنساني للثورة الجزائرية بمراكز اللاجئين وأثره على العلاقات الجزائرية المغاربية، مجلة المصادر، العدد 10 (السداسي الثاني 2004)، ص159.
- 24) مجموعة باحثين: كفاح المرأة الجزائرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في قلب الثورة التحريرية، مجلة القوات البرية، وزارة الدفاع الوطني، الجزائر، العدد07، مارس 2005، ص270-271.
- 25) الفلورنس هي العملة الهولندية.
- 26) Niek PAS: "Sauvez un enfant" Le soutien humanitaire néerlandais aux réfugiés algériens pendant la guerre d'Algérie 1954-1962, Insaniyat, Revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales CRASC, Oran, Algérie, 18 e année-numéro double 65-66, juillet-d-Décembre 2014 ,p154.
- 27) ibid, p150.
- 28) إيفه بريستير: المصدر السابق، ص23.
- 29) عبد الرحمان ناصر: المصدر السابق، ص51.
- 30) نفسه، ص70-71.
- 31) إيفه بريستير: المصدر السابق، ص264.
- 32) مجموعة باحثين: المرجع السابق، ص262-263.

- 33) نفسه، ص265-266.
- 34) نفسه، ص270-271.
- 35) عبد القادر بن دعماش: الفرقة الفنية لجهة التحرير الوطني (1957-1962) الفن في مواجهة الاحتلال، منشورات أنترسيني، 2008، ص100-101.
- 36) جريدة المجاهد، العدد: 120، ج4، 30 أفريل 1962، ص362، أنظر الملاحق التي تبين أوضاع اللاجئين وإجراءات العودة.